العتبة العلوية المقدسة

دروس وعبر من خطبة الزهراء عليها السلام

إعداد:
قسم الشؤون الدينية – شعبة التبليغ

دُرُوسٌ وعِبَرٌ

مِنْ

خُطْبَةِ الزَّهْرَاءِ عليها السلام

إعداد

قسم الشؤون الدينية
شعبة التبليغ

أسم الكتاب: دُرُوسٌ وعِبَرٌ مِنْ خُطْبَةِ الزَّهْرَاءِ عليها السلام

إعداد: قسم الشؤون الدينية – شعبة التبليغ

الناشر: العتبة العلوية المقدسة

المراجعة: شعبة التبليغ في قسم الشؤون الدينية

الطبعة: الأولى

سنة الطبع: ١٤٣٩ هـ – ٢٠١٨م

قياس: ١٤,٨×٢١

عدد الصفحات: ٦٤

عدد النسخ: ٥٠٠٠

الموقع الإلكتروني: www.imamali.net

البريد الإلكتروني: tableegh@imamali.net

موبايل: ٠٧٧٠٠٥٥٤١٨٦

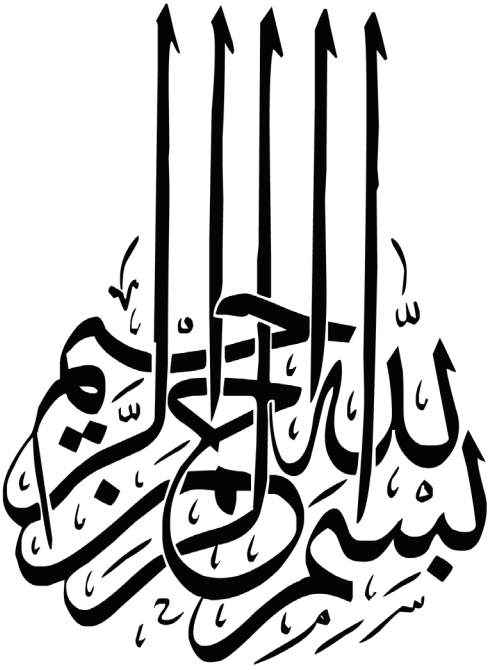
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إنّ تتبع سيرة أَهل البيت عليهم السلام تُعدُّ إِحدى اللبنات الأَساسية لسلُّم البناء العقائدي والفكري والسياسي والاجتماعي، الذي ارتضاه الإسلام منهجاً لتقويم العقيدة، وتنظيم السلوك والسير باتجاه حركة التكامل الإنساني المطلوب، على صعيد الفرد والمجتمع.

ذلك أنّ ما خُصّوا به من فضل عظيم، وما أحرزوه من مكانة متميزة في تاريخ الإسلام، يدفعنا نحو استجلاء معالم تلك السيرة وتتبعها، لأنّها تحدد الرؤية الأسلم، والصيغة الأكمل لفهم الإسلام وتجسيده بأصوله، وأركانه، وفروعه، وعلى كافة المستويات.

والزهراء عليها السلام تمثّل النموذج الأَكمل، والمثل الأَعلى الذي أَرادته الرسالة الإلهية للمرأة المسلمة سلوكاً ومنهجاً، سواء على صعيد حياتها الشخصية، بما تحمله من أَسرار العظمة المتجسِّدة في روحانيتها وعفَّتها وعبادتها وزهدها وعلمها، أَو على صعيد حركتها في واقع الحياة، وما تشتمل عليه من جهاد مرير، وصبر مستمدٍّ من قوة الإيمان، وشدَّة الإخلاص، ومواقف صلبة في الحفاظ على المفهوم الأَصيل لقيادة الأُمّة بعد الرسول صلى الله عليه وآله.

إنّ موقف الزهراء عليها السلام بعد وفاة أبيها المصطفى صلى الله عليه وآله يشتمل على دلالات وأَبعادٍ سياسية خطيرة، حرية بالبحث والدراسة، والتي شكَّلت المخاض العسير الذي أَنجب أَخطر المعطيات السياسية والاجتماعية بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله إِلى رحمة ربِّه ورضوانه.

كان الدور الذي اضطلعت به الزهراء عليها السلام بعد وفاة أَبيها صلى الله عليه وآله يتمثل في الحفاظ على الصيغة الإِسلامية الأَصيلة على مستوى العقيدة والسياسة والتشريع ، ويمثل حجر الزاوية في تأْصيل خط الإِمامة بكل ما يحمله من مفاهيم وأَفكار وأَهداف وتوجّهات وخصائص ومميزات، ويعكس الموقف السليم من التغيرات الطارئة المستجدة في حياة الأمّة على صعيد العقيدة وفهم الكتاب وإقامة السُنّة.

فلابد إِذن من استلهام الدروس، واستجلاء العبر من سيرة الزهراء عليها السلام لِتُسهِمَ في إِعداد الأمة الإسلامية، ودفعها باتجاه القيم الأخلاقية ومبادئ العقيدة الحقَّة.

وإصدارنا هذا تكفَّل بشرح بعض مفردات خطبة الزهراء فاطمة عليها السلام في نساء المهاجرين والأنصار، والوقوف على بعض المباحث فيها، بأسلوب علمي واضح، وموثَّقٍ بالمصادر المعتبرة.

ندعو الله العزيز أن ينفع به الأخوة المؤمنين، ومنه تعالى نستمد العون والسداد، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

الذود عن الولاية على فراش المرض:

بعد أن انتهت سيّدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام من خطبتها المعروفة بالخطبة الفدكية، والتي طالبت بحقِّها المغتصب، غادرت المسجد متوجّهة إلى منزلها، وهي ساخطة على القوم، غير راضية عنهم، وقد اشتدّ في المنزل مرضها، حتّى وافاها الأَجل بسببه بعد بضعة أيّام.

لكنّ جماعة من نساء المهاجرين والأنصار ذهبن لعيادتها في أيّام اشتداد مرضها، فاغتنمت عليها السلام الفرصة لإِلقاء خطبتها الثانية[1]، هي تلك التي سوف نقف على أَهم فقراتها.

ولابدّ قبل البدء بشرح عبارات الخطبة من الإِلتفات إِلى النقطة التالية:

وهي أنّ الزهراء عليها السلام قد سعت -على الرغم من مرضها الشديد- إلى اغتنام فرصة اجتماع نساء المهاجرين والأَنصار لتبيين بعض الأُمور التي لم يكن بيانها بهذه الكيفيّة ممكناً في موضع آخر، ولم يتم التطرُّق في هذه الخطبة إِلى شأْن فدك، وغصب الأَموال، بل قد انصبّ اهتمام الزهراء عليها السلام فيها على مسألة إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، وتغيير مسير الإِمامة والولاية.

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ص٣٧٤.

في الحقيقة فإنّنا نستطيع القول: إنَّ هذه الكلمة هي أَفضل وأَكمل وأَنجع ما دافعت به الزهراء عليها السلام عن حياض الولاية والإِمامة، وقد ذكرت في هذه العبارات القصيرة نسبيّاً (حيث من الواضح أَنَّ حالتها لم تكن لتسمح لها بإِلقاء خطبة مطوّلة) مباحثَ هي غاية في العمق والشدّة، وقمّة في إِعطاء العبر والدروس، فكان من شأْنها أَن تهزّ القلوب المتأهّبة والمستعدّة.

إِذن فقد كان قصدها عليها السلام الذود عن قضيّة الولاية والإِمامة فيما تبقّى لها من عمرها الشريف، وتبيين الحقائق أَمام الملأ قدر المستطاع، كي يُدركوا خطورة ما اقترفته أَيديهم، وما سينتج عن هذا العمل من تبعات وتداعيات خطيرة.

كما أَنَّ هناك بُعداً أَكثر عمقاً لهذه الخطوة التي قامت بها الزهراء عليها السلام وهو أَنَّ دفاعها عن حصون الإِمامة وعن أَمير المؤمنين عليه السلام لم يكن من منطلق عاطفيٍّ أَو أُسريٍّ، أَو استناداً إِلى علاقتها الشخصيّة بزوجها وما إلى ذلك، صحيحٌ أَنَّ الدفاع عن الزوج أَمرٌ مستحسَنٌ، غير أَنَّ ما قامت به الزهراء عليها السلام كان يسمو على قضيّة الدفاع عن حقّ الزوج بكثير، فلمّا كانت الإِمامة هي العلّة الـمُبقِية للإِسلام، فإِنَّ الذود عن إِمامة أَمير المؤمنين عليه السلام يعني الدفاع عن الإِسلام برمّته، فإِنّنا نستطيع أَن نقول بكلّ جُرأة وصراحة: إِنّه لولا الدور الذي نهض به إِمامنُا عليُّ بن أَبي طالب عليه السلام مع كلّ ما اكتنف هذا

الدور من مظلوميّة ومحدوديّة، لَما بقي من الإِسلام شيءٌ، فما بالكم بحقّانية مذهب التشيّع ومعارف أهل البيت عليهم السلام!

ومن هذا المنطلق يتعيّن علينا أَن نسلط الضوء -بشيء من التحليل -على ما قامت به الزهراء عليها السلام على فراش المرض من إِلقائها تلك الخطبة الغرّاء، إِذ أَنها تشتمل على عدة قضايا مهمة، وهي:

القضيّة الأُولى: هي حماية الولاية والإِمامة بالخصوص.

والقضية الثانية: هي الدفاع عن الإِسلام عموماً.

لكنَّ التحليل لا يقف عند هذا المستوى، وإِنما نلمس هناك بعداً آخراً، أَكثر عمقاً في هذا التحرّك الفاطمي، وهو:

أَنَّ المرء قد يخرج أَحياناً إِلى جبهات القتال والجهاد دفاعاً عن الإِسلام، لكنّك إِذا فتّشت في أَعماقِ قلبه وجدتَ -في الأَعمِّ- أَنَّ الجهاد كان خوفاً من النار، ورجاءً للثواب، وشوقاً إِلى الجنّة والحور والقصور، لكن: هل الأَمر كذلك مع أَئمتنا عليهم السلام؟ وهل كان دفاع أَئمّتنا المعصومين -ولاسيّما شخص الزهراء (صلوات الله عليهم أجمعين)- عن الإِسلام مجرّد أَداءٍ لتكليفٍ شرعيٍّ يا ترى؟ أم كان ينطوي على أَمر أَعمق من ذلك؟

والجواب: في الحقيقة كان البعد الأَشدّ غَوْراً لهذا الموقف هو الرأفة بالناس، والشفقة عليهم، فقد كانت الزهراء عليها السلام تعلم علم اليقين أَنّ حرمان الناس من هذا الدين يعني ابتلاءهم بالتعاسة والشقاء في الدنيا، وتورّطهم بالعذاب الإِلهيّ الأَبديّ في الآخرة.

ومن هنا فقد سعت إِلى هداية الناس ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فلقد تجسّد في كيان الزهراء عليها السلام جوهرُ وجود ذلك الرَّجل الذي يقول الباري سبحانه وتعالى في وصفه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[1].

ولذا كانت الزهراء عليها السلام تحاول جاهدةً حتّى آخر نَفَس من أَنفاسها أَن تُعرِّف - ولو شخصاً واحداً - بالحقِّ، وتهديه إِلى سواء السبيل، وتنقذه من غياهب الضلالة، والعناد، وحبّ الدنيا.

إِذن فقد كان للزهراء عليها السلام لبيان هذه الحقائق - في الواقع - ثلاثة دوافع هي في طول بعضها:

الأوّل: هو قضيّة الدفاع عن الإمامة.

والثاني: هو الذود عن حياض الإسلام.

والثالث: هو الحرص على دين الناس والشفقة عليهم، فلقد كانت من الشفقة عليهم إِلى درجة السعي لاغتنام أَيِّ فرصة من أَجل هدايتهم.

(١) سورة التوبة: الآية١٢٨.

الشكوى من انعدام النخوة وفقدان المروءة:

«لمّا مرِضت فاطمة عليها السلام المرض التي تُوفّيت فيه، دخلت عليها نساء المهاجرين والأنصار يعُدْنها، فقُلنَ لها:

كَيْفَ أَصبحتِ مِنْ عِلّتِكِ يا ابنةَ رسولِ الله؟».

وكان باستطاعتها عليها السلام أَن تجيب على سؤالِهنّ عن حالها باختصار، وتُنهي الموضوع بكلّ بساطة، لكنّها اغتنمت الفرصة، وأجابت عن سؤالهنّ عن أَحوالها بخطبة: فحمدتِ اللهَ، وصلّت على أَبيها»، كما هو متعارف في الخطب الإسلاميّة، ثمّ قالت: «**أَصْبَحْتُ وَالله عَائِفَةً لِدُنْيَاكُنَّ، قَالِيَةً لِرِجَالِكُنَّ**»، لقد أَصبحتُ تاركة لدنياكنّ، متنفّرةً ومتذمّرةً منها أَشدّ التنفُّر والتذمُّر، وساخطة أَعظم السخط على رجالِكنّ، (حيث إِنّ المسؤوليّة الرئيسيّة لما وقع كانت في أَعناق الرجال، ولم تكنْ النسوةُ مسؤولاتٍ عن ذلك بشكل مباشر).

ثمَّ قالتْ عليها السلام: «**لَفَظْتُهُمْ بَعْدَ أَنْ عَجَمْتُهُم**»: وها هي عليها السلام تلجأ مرّة أُخرى إلى استخدام تعابير غاية في البلاغة، يعجز اللسان عن إِعطائها حقّها وبيان عمقها الأدبيّ.

فالعرب إِذا أَرادوا اختبار سلامة التمرة قبل أَكْلِها، فإِنّهم يعضّونها بأَسنانِهم لفحصها، ويقال لمن يفعل ذلك: إِنّه «**عَجَمَ**» التمرة، فالزهراء عليها السلام تقول: لقد اختبرت رجالكنّ لأَرى كيفَ

هُم، ففهمتُ من الإِختبار الأَوّل أَنّهم فاسدون، فلَفَظْتُهم من فمي، أي: نبذتُهم من فمي وطرحتهم، وإِنّما يقال للفظ إِنّه «لفظٌ» لأَنّه عبارة عن هواء يخرج من الفم عند النطق.

ثم قالت عليها السلام: «**وَسَئِمْتُهُمْ بَعْدَ أَنْ سَبَرْتُهُم**»: ولأجل توضيح مرادها عليها السلام نقول: المرء تارةً لا ينظر إِلاّ إِلى ظاهر الشيء عند شراءه، وتارةً أُخرى يقلّبه ويتفحّصه بدقّة، كي يعلم جودته من عدمها، فيقال: إِنّه «**سَبَرَهُ**»، وهو: تفحّص أَعماق الشيء، تقول مولاتنا فاطمة عليها السلام: لقد سئمت رجالكنّ، ومللتهم، بعد أَن اختبرتهم بتمعّن وتفحّص.

وكلُّ لغةٍ تنفرد بتعابير خاصّة في حال بيان تنفّر المرء ومله من شيء معيّن، ومنها اللغة العربيّة التي تتضمّن هي الأُخرى أَلفاظاً بليغة في هذا الجانب، وقد استخدَمتْ فاطمةُ الزَّهراء عليها السلام للإِفصاح عن نفرتها وسَأْمِها من رجال تلك النسوة، وهذه التعابير قد استخدمها القرآن الكريم أَيضاً، فالباري عزّ وجلّ يستعمل كلمة «**بعداً**» في حقّ قوم عاد وثمود، عندما يقول: «**أَلا بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ**»[1] «**أَلا بُعْداً لِّثَمُودَ**»[2]، وهي تعطي معنى اللعن، لأَنَّ الرَّجل إِذا لُعِن فقد طُرد من رحمة الله

(١) سورة هود: الآية٦٠.

(٢) سورة هود: الآية٦٨.

تعالى، وهو نفس المعنى الذي تعطيه كلمة «بعداً».

وقد تُستعمل للتعبير عن هذا المعنى تعابير أُخرى مشابهة لذلك الذي اختارته الزهراء عليها السلام هنا، عندما قالت: «**فَقُبْحاً لِفُلُولِ الْحَدِّ**»، أَي: قُبْحاً للسيف إِذا كَلّ ولم يَعُد يقطع، بعد أَن كان حادّاً قاطعاً، ومعناه: كم هو قبيح أَن نرى السيف قد أَصبح كليلاً وغير قاطع، عندما نكون بحاجة إِليه للجهاد.

وتابعت عليها السلام خطبتها: «**وَاللَّعِبِ بَعْدَ الْجِدّ**»: أَي: قبحاً للمزاح في الأَمر المهمّ والخطير بعد اتّخاذِ قرارٍ جِدّيٍّ، ومعناه: إِنّكم قد اتّخذتم الإِسلام - الذي هو عامل حياتكم، وسعادتكم في الدنيا والآخرة، والذي يتعيّن عليكم التعامل معه بكلّ جدّ وحزم - لهواً ولعباً.

ثم قالت عليها السلام: «**وَقَرْعِ الصَّفَاةِ**»: فالذي يرغب بأَن يُفتح له الباب عليه قرع مطرقته، وإِنّ من الحماقة بمكان قرع صخرة صمّاء بَدَلاً من الباب.

تريد الزهراء عليها السلام القول: إِنّ الله قد جعل لكم باباً من الرحمة، وإِنه ينبغي لكم قرع تلك الباب، كي تنهال عليكم رحمتُه، لكنّكم وبدلاً من قرع باب رحمة الله، وعوضاً عن طرق باب العلم، والرحمة، والسعادة، فإِنّكم لجأتم إلى من هو أشبه بالصخرة،

ورحتم تقرعون صَخْرةً صَمّاءً، فلا يُفتح لكم بابهُ مهما طرقتموه.

ثم قالت عليها السلام: «**وَصَدْعِ الْقَنَاةِ**» إنّ ذلك الرمح الذي شحذتموه في الماضي وكان يجب أن تستخدموه الآن قد فقد قدرته وكفاءته.

ثم قالت عليها السلام: «**وَخَتلِ الآرَاءِ وَزَلَلِ الأَهْوَاء**»: فلقد أخطأتم في جميع آرائكم، وأَمعنتم في الإِنغماس في أَهوائِكم، فعوضاً عن السير في أَثر الحقّ سرتم خلف أهوائكم، وبَدَلاً من إِبدائِكم للرأي الصواب، ذهبتم تبدون الآراء الفاسدة، فأَيُّ رجاءٍ أَرجوه فيكم بعد اليوم؟

ثمّ تقول مقتبسة كلامها من الآية الثمانين من سورة المائدة: «**وَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ**».

وقد امتازت الآيات التي استشهدت بها الزهراء عليها السلام في خطبتها، بالشدّة واللهجة اللاذعة والقاسية، ممّا يحكي عن عمق فراستها عليها السلام واستشرافها لتبلور تيّار بدأت بوادره تظهر في السقيفة، لكنّه استمرّ فيما بعد.

فاستشهادها عليها السلام بتلك الآيات يشير إِلى أَنّ هذه الحركة حتّى إِذا لم تكن كفراً بالفعل، فإنّ طبيعتها توحي بأَنّها ستنتهي إِلى الكفر لا محالة.

فقد أَرادت عليها السلام أَن تقول باقتباسها لهذه الآية: «أَيّ ذخيرة غير مباركة ادّخرها رجالكنّ لأَنفسهم؟ إِنّها ستكون سبباً لسخط الله عليهم سخطاً يخلّدهم في العذاب».

ونحن نعلم أَنّ الخلود في العذاب إِنّما يكون للكافر، وأَنّ المؤمن مهما عُذّب فإِنّ عذابه يكون مؤقّتاً.

ونفهم من ذلك أَنّ مولاتنا عليها السلام أَرادت باقتباسها لهذه الآية أَن تقول: «إِنّ مرتكبي هذا العمل أُناسٌ خارجون عن الدين، أَو – على أَقلّ تقدير – قد سَلَكوا طريقاً ينتهي بهم إِلى الكفر».

ثم تابعت خطبتها عليها السلام: «**لا جَرَمَ لَقَدْ قَلَّدْتُهُمْ رِبْقَتَهَا**»: نتيجة لما أَبداه هؤلاء من تصرّف، فإِنّني من جهتي قد وضعت حبل الخلافة حول رقبة هذا البعير.

ثم قالت عليها السلام: «**وَحَمَّلْتُهُمْ أَوْقَتَهَا**»: ووضعت حملها الثقيل على ظهور هؤلاء القوم، «**وَشَنَنْتُ عَلَيْهِمْ غَارَاتِهَا**» ونهضت لمقارعتهم، «**فَجَدْعاً، وَعَقْراً، وَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**»، فمن عادة العرب أَن يقولوا عندما يريدون الدعاء على أَحد: «**جَدْعاً**»، أَي: جدع الله أَنفك، «**وَعَقْراً**»، والعقر هو: قطع إِحدى قوائم البعير بالسيف أَو غيره ليسقط، «**وَبُعْداً**»، أَي: سلّط الله على هؤلاء القوم الظَّلَمة البعيدين عن رحمة الله منتهى الخزي والمذلّة.

الدِّفَاعُ الصَّرِيحِ عَنْ الوُلايَةِ:

ثمّ قالت عليها السلام: «**وَيْحَهُمْ! أَنَّى زَعْزَعُوهَا عَنْ رَوَاسِي الرِّسَالَةِ، وَقَوَاعِدِ النُّبُوَّةِ وَالدَّلالَةِ، وَمَهْبِطِ الرُّوحِ الأَمِينِ، وَالطِّبِينِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّين**»، الويل لهم! إذ زحزحوا حمل الخلافة عن مكانه، وحرّفوه عن مسيره، وجعلوه في موضع لا يُؤْمَن عليه فيه، ولا يصلح لاستقراره.

وفي هذا القول دليل على أَنّ غاية الزهراء عليها السلام من خطبتها السابقة -المعروفة بالخطبة الفدكية- كانت إِثباتَ عدم أَهلية المتصدّين للخلافة لها، فقد أَرادت إِفهام النَّاس أَنّ هؤلاء لا يصلحون لخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله بتاتاً، وحتّى لو افترضنا جدلاً بأَنّ للناس الحقّ في انتخاب الإِمام عليهم، فبئس الإِختيار لهذا الذي اختاروه.

لقد شبّهت الزهراء البتول عليها السلام مقام الرسالة وشؤونها بالجبال الشُمّ، وإِن خلافة الرسول الأَكرم صلى الله عليه وآله منزلتها كالجبال الشامخة للرسالة، لكنّ القوم رموها في قعر واد سحيق، وهذا المنصب لا يستحقّه إِلاّ أُولئك العارفون بمصالح الرعيّة في دينهم ودنياهم حقّ المعرفة.

«**أَلا ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**»[١]، وهذا خسران بينّ واضح، فقد اختار الله عزّ وجلّ لتلك النعمة العظيمة موضعاً مناسباً ورفيعاً؛ كي تنهلوا أَنتم من معينها إِلى أَبد الآبدين، وتُعمِّروا بها ليس دنياكم فحسب، بل وآخرتكم أَيضاً، لكنّكم قد فرّطتم بهذا الفعل بدنياكم وآخرتكم معاً، فهل من خسران أَكبر من هذا الخسران[٢]؟

مَاذا لَوْ أَصْبَحَ عَلِيٌّ عليه السلام حَاكِمَاً؟

ثم وقفت وبينت عليها السلام الأَسباب الحقيقية لعدم رغبتهم في تصدي أَمير المؤمنين علي عليه السلام للخلافة بقولها عليها السلام: «**وَمَا الَّذِي نَقَمُوا مِنْ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام؟ نَقَمُوا وَالله مِنْهُ نَكِيرَ سَيْفِهِ، وَقِلَّةَ مُبَالاتِهِ لِحَتْفِهِ، وَشِدَّةَ وَطْأَتِهِ، وَنَكَالَ وَقْعَتِهِ، وَتَنَمُّرَهُ فِي ذَاتِ الله ...**».

الحَاكِمُ المِثَالِيُّ:

بعد أَن أَتمّت فاطمة الزهراء عليها السلام في الأَيّام الأَخيرة من عمرها الحُجّة على الناس، وعلى المتصدّين للخلافة، من دون الوصول معهم إِلى نتيجة، أَرادت في هذا المجلس أَن تُبيّن عِلّة تخلّي الناس عن أَمير المؤمنين عليه السلام.

ومن أَجل فهم العلّة من وراء ترك الناس لأَمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) سورة الزمر: الآية ١٥.

(٢) محاضرات الشيخ مصباح اليزدي بتصرف.

ومبايعة غيره، علينا بادئ ذي بدء تقديم هذه المقدّمة، وهي: ما الذي تتوقّعه الرعيّة من الحاكم؟ ومن هو الحاكم المثاليّ؟

القسم الأَوّل: من الأُمور التي تَطْلبها الرعيّة من الحكومة هي أُمور عامّة، يتوقّعها كلّ شعب – مهما كانت اتّجاهاته الفكريّة والعقائديّة – من زعيمها.

ومنها: تنفيذ القانون الذي أَقرّه الشعب بشكل صحيح، والذي من لوازمه معاقبة الخارجين عن هذا القانون، فأَفراد المجتمع ينتظرون من الحاكم محاكمة ومعاقبة مَن يتمرّد عمداً على القانون، ويتجاوز على حقوق الآخرين.

كما وإِنّ من مطالبات الشعب العامّة من حاكمه، هو أَن يكون الأَخير رؤوفاً بعامّة الرعيّة، وطالباً لخيرهم في الظاهر والباطن.

ومنها أَيضاً: أَن لا يُفكِّر الحاكم بنفسه، وأَن يفكّر جدّياً بتأمين مصالح المجتمع وخدمة الرعيّة، لا أَن يسعى لكنز الثروة وجمع الإِمتيازات لنفسه.

هذا النمط من المطالبات يطالب به كلّ شعب من حكومته، ويكون الحاكم مثاليّاً بالنسبة لكافّة المجتمعات البشريّة إذا توفّرت فيه هذه الخصوصيّات.

أَمّا المجتمع الإِسلاميُّ فإِنّه – مضافاً إِلى ما سبق – ينتظر من

حاكمه صيانة القيم الإسلاميّة وإشاعتها على صعيد المجتمع؛ أَي أَن يجعل الرعيّة تسير على صراط التوحيد القويم، ويجتهد في أَن لا يُبتلى أَفراد الأُمّة بضروب البدع والآفات الفكريّة والانحرافات العقائديّة.

فإِذا انتهج الحاكم – في مقام العمل – سبيل التسامح واللامبالاة، ولم يتعاط مع هذه القضايا بجدّية كبيرة، فسينقسم النَّاس حيال ذلك إلى طائفتين عادةً؛ فالظلمة والمتجاوزون على حقوق العباد، والذين يُسيؤون التصرّف ببيت المال، سيستبشرون ويرضون عن الحاكم إِذا أَمنوا من جانبه العقاب، ولاحظوا منه انعدام الحزم في التعامل مع تجاوزاتهم.

أَمّا سائر الناس فإِنّهم عندما يشاهدون الحيف الذي ينزل بهم، والحقوق التي تضيع منهم فسيستاءون، ولا يرضون عن هذا الحاكم، فحينما تُؤَمَّنُ مصالح المتنفّذين، وأَصحاب الثروات، ورؤوس الأَموال، فإِنّهم سيحاولون بشتّى الحيل والوسائل إِقناع الآخرين، وإِلهاءهم عن مزاحمتهم، وخلق المشاكل لهم، وهي أَساليب تشاهَد في كلّ بلد من بلدان العالم، وقد لا يتسنّى العثور في هذه الدنيا على بلد لا تُستخدم فيه تلك الحيل والأَساليب الشيطانيّة؛ ذلك أَنّه لا يخلو بلد من وجود فئة من الخواصّ والنُّخب، يلتفّون حول حاكمه الذي يكون بحاجة إِلى آرائهم،

ومساعداتهم الماليّة، وما يتمتّعون به من نفوذ وسلطة، ولهذا تكون أَياديهم مطلقة في التصرّف ببيت المال كيفما شاءوا، ولكي لا تثور الشعوب عليهم فإنّهم يحاولون إِلهاءها بكلّ الوسائل المتاحة، وهذا الوضع أَضحى عاديّاً وطبيعيّاً في العديد من الحكومات والبلدان، أَمّا الدين الإِسلاميّ فهو لا يرضى بذلك.

حُكُومةُ عَليٍّ عليه السلام نَموذجٌ لِلحكومةِ الإِسلاميّةِ:

لقد أَعطى عليٌّ عليه السلام المثلَ الأَعلى للحاكم الإِسلاميّ، فالعدوّ والصديق في جميع أَقطار العالم وأَكنافه يعلم عن عَدْل عَليٍّ (سلام الله عليه)، فلقد كانت حكومته أُنموذجاً يُحتذى به على طول تاريخ البشريّة، فالحاكم العادل الحقيقيّ – حسب الرؤية الإسلاميّة – هو الرجل الذي يكون حازماً في تعامله مع المتعدّين، ولا يتّخذ مع الظلمة جانب اللين والمداهنة والتسامح، ولا يميل في حكمه إِلى قومه وعشيرته وحزبه، ...الخ، بل يقيم الحقّ أَينما كان، هذا هو نموذج الحكم الإِسلاميّ المثاليّ.

لقد عرف الناس عليّاً عليه السلام حقّ المعرفة، فلقد شاهدوا عدم مفارقته لرسول الله صلى الله عليه وآله طرفة عين طيلة ثلاث وعشرين سنة من عمر الرسالة؛ وخبروا سلوكه وتصرّفاته عن كثب، وقد علم الجميع أَنّ عليّاً لا يَلين أَمام الحقّ، وفي مقابل الحكم الإِلهيّ، وأَنّ القريب والغريب عنده سواء عند إِقامة الحقّ.

إِذن فالناس قد عرفوا عليّاً عليه السلام بهذه الصفات، وعلموا أَنّه ليس ممّن يسعهم خداعه، أَو استغلاله لأَغراضهم الشخصية أَو الفئوية.

عَيْبُ عَلِيٍّ عليه السلام سَجَاياهُ الحَسَنَةُ:

ومعنى كلامِ الزهراء عليها السلام في هذا المقطع: إِنَّ العِلّة من وراء عدم تأييد عامّة الناس لعليّ عليه السلام هو سجاياه الحسنة، وإِلاّ فليس بوسع المرء العثور على أَيِّ عيبٍ فيه، فأَيُّ امرءٍ كان يعرف الإِسلام أَكثر من عَلِيٍّ عليه السلام؟ ومَنْ مِنْ النَّاس كان يفوق عليّاً عليه السلام عَطْفاً، وشفقةً على الضعفاء والأَيتام والفقراء والأَرامل؟ فالجميع كانوا يعلمون أَنَّ عليّاً عليه السلام لم يكن يتحمّل دمعة يتيم، لقد شاهدوا بأُمّ أَعينهم كيف أَنّه عليه السلام كان يحفر الجداول، ويزرع بساتين النخيل، ثمّ يوقفها للفقراء من دون أَن ينتفع هو منها، بل كان يبيت هو وأَطفاله وعياله جياعاً، بعد أَن يدفعوا ما عندهم من قليل الطعام إِلى سائل.

وقد يقول قائل: إِنّ هذه لصفاتٌ حسنةٌ للغاية، وإِنّ أَيّ أُمّة ستحبّ زعيمها إِذا اتّصف بهذه السجايا، إِذن فلماذا أَقصوا عليّاً عليه السلام عن مَسْندِ الخلافة؟

والجواب: أَجل، الناس كانوا قد عرفوا عليّاً عليه السلام حقّ المعرفة، غير أَنّ خواصّ القوم كانوا يطلبون منه أَن يحسب لهم حساباً خاصّاً يختلف عن عامّة الرعيّة؛ لكنّ عليّاً لم يكن من هذا الصنف من الرجال.

فعليٌّ عليه السلام كان من ذلك النمط الذي عندما جاءه أَخوه الفقير

يطلب منه زيادة سهمه من بيت المال؛ قرّب من يده حديدة مُحماةً، تذكيراً له بعذاب الله الأَليم.

إِذن فلقد أَحسّ القومُ من عليٍّ عليه السلام أَنّه ليس من الصنف الذي يسعهم التفاهم معه، فكانوا على استعداد لأَنْ يتغاضوا عن كلّ حسنات عليٍّ عليه السلام، وسجاياه الحميدة، ويضعوا أَيديهم بيد من يحسب لهم حساباً خاصّاً.

تقول فاطمة عليها السلام بصيغة الإِستفهام الإِستنكاري: «**وَمَا الَّذِي نَقَمُوا مِنْ أَبِي الْحَسَنِ** عليه السلام»؟ ما هو العيب الذي كان في عليٍّ عليه السلام كي ينفضّوا من حوله؟! ومن باب الاحترام فقد كانت عليها السلام تذكر أَمير المؤمنين بكنيته.

بعد ذلك تجيب مولاتنا الزهراء عليها السلام: «**نَقَمُوا وَاللهِ مِنْهُ نَكِيرَ سَيْفِهِ، وَقِلَّةَ مُبَالاتِهِ لِحَتْفِهِ**»، فإِنّ العيب الذي أَخذوه على عليٍّ عليه السلام هو أَنّ أَحداً لم يكن يصمد أَمام سيفه في ساحة الوغى، فلقد شاهدوا كيف أَنّه عليه السلام لا يخاف الخطر أَو القتل عندما تحين ساعة النِزال.

«**وَشِدَّةَ وَطْأَتِهِ**»، فقد كان يخطو بثبات وعزم، لا بتسامح ومداهنة.

«**وَنَكَالَ وَقْعَتِهِ**»، فإِن أَنزل العقاب بأَحد فإِنّ ضربته تكون شديدة، تلقّن درساً قاسياً.

«**وَتَنَمُّرَهُ فِي ذَاتِ اللهِ**»، وهذا تعبير بليغ وظريف للغاية وهو مشتقّ من «النَّمِر»، فالعَرب تعتقد بأَنّ النَّمرَ يمتاز من بين السباع بصفة خاصّة، وهي أَنّه يكون دائم الغضب، ومتأهّباً للنزال على الدوام.

ومن هنا فإنّهم يُطلقون صفة التنمّر على الرجل إذا كان دائم التأهّب للقتال؛ ولا يُؤخَذ على حين غِرَّة.

وعبارة «**تَنَمُّرَهُ فِي ذَاتِ اللهِ**» تعني: أَنّه عندما يتعلّق الأَمر بالله عزّ وجلّ يكون عليٌّ عليه السلام على أَتمّ الإستعداد، ويتعاطى مع التكاليف الإلهيّة بحزم كامل لا يلين، وهذا هو العيب الذي أَخذه الناسُ على عَليٍّ عليه السلام إذ ما كان لهم أَن يُطيقوا ذلك منه.

فلقد حدث أَنْ كان أَمير المؤمنين عليه السلام مرّة على رأس سريّة في مهمّة خاصّة، فلمّا رجعوا جاء بعضهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وشكوا إليه حزم عليّ عليه السلام وشدّته، فكان جواب النبيّ صلى الله عليه وآله لهم أَن قال: «**ارْفَعُوا أَلْسِنَتَكُمْ مِنْ شِكَايَةِ عَلِيٍّ، فَإِنّه خَشِنٌ فِي ذَاتِ اللهِ**»[1]، فعندما يتّصل الأَمر بالله جلّ شأنه وبحكمه، فإنّه لا يُبدي عليه السلام من جانبه أَيَّ تهاون أَو لين، وإذا تعلّق الموضوع بحقوق الرعيّة، فلا يغضّ الطرف عن شيء قيد أُنملة، بينما إذا ارتبطت المسألة بحقّه الشخصيّ، فإنّك تراه يتغاضّى عن كلّ شيء.

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى: ص١٣١.

سِيرةُ عليٍّ عليه السلام هيَ السَّبيلُ الوَحيدُ لِسعادةِ البَشَر:

ثم أعقبت كلامها عليها السلام: «**وَتَالله لَوْ مَالُوا عَنِ الْمَحَجَّةِ اللاَّئِحَةِ وَزَالُوا عَنْ قَبُولِ الْحُجَّةِ الْوَاضِحَةِ لَرَدَّهُمْ إِلَيْهَا وَحَمَلَهُمْ عَلَيْهَا**»، فوالله لو انحرفت الأُمّة، وزاغ الناس عن السبيل القويم، لأَرجعهم عليٌّ عليه السلام إِلى جادّة الحقّ، ولم يذرهم ينحرفون عنها.

فالانحراف في الرأي أَو النهج - سواءً أَكان عن سهو أَو عن عَمد - قد يصيب أَيّ مجتمع، وإِنّها لفضيلةٌ عظيمةٌ تُسجَّل للحاكم إِذا تمكّن من ردع المجتمع عن الزيغ عن سبيل الحقّ.

وتابعت عليها السلام قولها: «**وَلَسَارَ بِهِمْ سَيْراً سُجُحاً**»: و«السير السُّجُح»: هو حركة البعير بهدوء بالغ، بحيث لا يؤذي راكبه، فالإِبل في ذلك الزمان كانت المركب المناسب الذي يستخدمه العرب في أَسفارهم البعيدة، وعندما تنطلق القافلة فإِنّ سائق الإِبل هو الذي كان يتولّى تنظيم حركتها، والحرص على عدم إِيذائها لراكبيها، فيحثّها على الإِسراع في السير إِذا لزم الأَمر الإِسراع، ويحدّ من سرعتها إِذا كان الإِبطاء ضروريّاً.

فمعنى كلام الزهراء عليها السلام في هذه الجملة: لو أَنّ عليّاً عليه السلام هو الذي أَخذ بزمام الحكومة لساق قافلة إِبل الأُمّة، بحيث لا تتخلّف الرعيّة عن القافلة من ناحية، ولا يصابون بتعب السفر أَو نصبه

من ناحية أُخرى، وسيبلغون مقصدهم بكلّ يسر من ناحية ثالثة.

«**لا يَكْلُمُ حِشَاشُهُ**»: فقد جرت العادة عند القدماء أَن يجعلوا رباطاً في أَنف البعير للسيطرة على حركته، فالراكب يوجّه البعير إِلى الوجهة التي يشاء من خلال تحريك هذا الرباط، لكنّ البعض كانوا يسحبون الرباط بشدّة إِذا أَرادوا توجيه البعير فيجرحون بذلك أَنفه، أَو يركلون بأَرجلهم فخذي البعير وجنبيه بعنف، فيصاب فخذه بالكدمات والجروح، لاسيّما في الأَسفار الطويلة التي تستمرّ أَيّاماً، ويتواصل معها ركل جنبي البعير.

وقصد مولاتنا الزهراء عليها السلام من هذا التشبيه أَنّه: لو أَنّهم تركوا أَزمّة إِبل الخلافة لعليّ عليه السلام لساقها إِلى المقصد بكلّ هدوء وسلاسة، من دون أَن يتسبّب في إِيذائها أَو إِيذاء راكبيها.

«**وَلا يَكِلُّ سَائِرُهُ، وَلا يُمَلُّ رَاكِبُه**»: فلا الإِبل تتخلّف عن القافلة، ولا راكبها يصيبه الإِعياء والضجر.

«**وَلأَوْرَدَهُمْ مَنْهَلاً نَمِيراً صَافِياً رَوِيّاً تَطْفَحُ ضَفَّتَاهُ، وَلا يَتَرَنَّقُ جَانِبَاهُ، وَلأَصْدَرَهُمْ بِطَاناً**»: فمصادر مياه الشرب كانت تحوز أَهمّية بالغة عند العرب في ذلك الزمن، فقد كان سكّان البادية يعيشون في صحراء قاحلة، وكان بالقرب من مقرّ كلّ قبيلة ينبوعُ ماءٍ أَو واحة تتجمّع فيها مياه الأَمطار، يستخدمها أَفراد تلك

القبيلة كمصدر للمياه، وهذا يعني أن فاطمة البتول عليها السلام أرادت أن تقول: «لو أَنّ عليّاً تسلّم زمام الحكومة لسار بالناس بكلّ هدوء وطمأنينة، ولأَوصلهم في الموعد المناسب إِلى ينبوع ماءٍ ليس ماؤه بالملوّث، بل هو صافٍ زلالٌ على الدوام، يتدفّق ويفور ويطفح من ضفّتيه، فيشرب منه أَفراد القافلة حتّى يرتووا، فإِنّ عليّاً عليه السلام إِذا قاد الأُمّة وتزعّمها فإِنّه لا يبقى في الأُمّة ضمآن».

«**وَنَصَحَ لَهُمْ سِرّاً وَإِعْلاناً**»: سبق أَن قلنا إِنّ الزعيم المثاليّ هو ذلك الذي يكون رؤوفاً بالرعيّة بكلّ ما في الكلمة من معنى، ولا يشغله شاغل غير خدمتهم في السرّ والعلانية، وعليّ عليه السلام كان كذلك.

«**وَلَمْ يَكُنْ يَتَحَلَّى مِنَ الْدُّنْيَا بِطَائِلٍ**»: فمن صفات الحاكم المثاليّ الأُخرى هي عدم تفكيره بنفسه أَو ادّخار شيءٍ له، فعليّ عليه السلام كما تقول سيّدتنا الزهراء عليها السلام لم يكن يقتنِ شيئاً من فَضْل الدنيا وزينتها.

«**وَلا يَحْظَى مِنْهَا بِنَائِلٍ غَيْرَ رَيِّ النَّاهِلِ وَشُبْعَةِ الْكَافِلِ**»: ولم يكن يمدّ يده إِلى بيت المال إِلا بمقدار جرعة ماء يروي بها ضمأه، وقليل من الطعام يسدّ به رمقه.

«**وَلَبَانَ لَهُمُ الزَّاهِدُ مِنَ الرَّاغِبِ، وَالصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ**»: وعندها سيمتاز الزاهد الحقيقيّ عن طالب الدنيا، ويتبيّن الذي يدّعي الحقّ

من صاحب المزاعم الجوفاء الكاذبة.

ثمّ تستشهد عليها السلام بقوله تعالى: «**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**»[1]: فالسنّة الإلهيّة تقضي بأنّه إذا أصبح أهل البلدان (المجتمعات البشريّة) من أهل التقوى والإيمان (أي: اعتقدوا بالمعتقدات الصائبة، وتقيّدوا بالقيم النبيلة)، فسيُنزل عليهم الله في هذه الدنيا بركات من السماء والأرض، لكنّهم – مع الأسف – قد كذّبوا عوضاً عن الإيمان، ولهذا فإنّنا سنعاقبهم بما اجترحوا من السيّئات، فالباري عزّ وجلّ أراد هنا: «أنّهُ إذا أصبح المجتمع من أهل التقوى»، أي: هذا الحكم وهذه السنّة ترتبط بالمجتمع لا بالفرد، فقد يكون في المجتمع بعض الصالحين، لكنّه إذا فسد المجتمع فإنّ الله سيُنزل العقاب بكلّ المجتمع.

«**وَالَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ**»[2]: كم هو جميل هذا الربط، فالزهراء عليها السلام تستشهد بالآية السابقة كقاعدة كلّية، وتجعلها كُبرى القياس، ثمّ تشير بعدها مستخدمة اسم الإشارة «**هَـٰؤُلاءِ**» إلى مجتمع عصرها.

بمعنى: حتّى هؤلاء القوم فإنّهم إذا ظلموا فستحيق بهم عواقب

(١) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

(٢) سورة الزمر: الآية ٥١.

أَعمالهم، ولن يستطيعوا أَن يُعجِزوا الله كي يكفّ عن تطبيق سننه.

الإِشارة إِلى هذه الآية يحمل عبرة عميقة، وضرباً من التنبّؤ بالمستقبل، ومعناها: -استناداً إِلى هذه الآية الشريفة- فإِنّ العذاب الإِلهيّ سيحيق بأَفراد هذا المجتمع لا محالة، بسبب تخلّفهم عن حكم الله تعالى، وإِهمالهم له، ونقضهم لبيعتهم[1].

عَاقبة الأُمّة التي تترك عليّاً عليه السلام:

يُمكننا أَن نقسّم هذه الخطبة إِلى ثلاثة أَقسام:

القسم الأوّل: توبيخها عليها السلام المهاجرين والأَنصار على تركهم لعليّ عليه السلام، وحرمان أَنفسهم من سعادة الدارين.

القسم الثاني: تُقارن الزهراء عليها السلام بين عليٍّ عليه السلام ومَن اختاره الناس خليفة عليهم، فتقول -ما معناه-: «أَهل البيت عليهم السلام هم قادة المجتمع البشريّ وهداته، أَمّا هؤلاء فهم التابعون المتخلّفون عن الركب، فكيف تتركون القادة الهداة وتتمسّكون بالتابعين»؟!

القسم الثالث: تتنبّأ عليها السلام بما سيكون عليه مصير هذه الأُمّة.

---

(١) محاضرات الشيخ مصباح اليزدي بتصرف.

الإِخْتيارُ المُثيرُ لِلعَجَبِ:

تقول الزهراء عليها السلام: «**أَلا هَلُمَّ فَاسْمَعْ**»، وهي عبارة تُستعمل عند إِظهار التعجّب من أَمرٍ مّا، «**وَمَا عِشْتَ أَرَاكَ الدَّهْرُ عَجَبَا**»، وهو مثل عربيّ معناه: كلّما امتدّ عمرك أَراك الدهر في كلّ يوم جديد شيئاً عجيباً، وشبيه بذلك ما يقال: لو لم يرَ المرء في كلّ يوم أَمراً عجيباً أَصابه العمى.

«**وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ**»: وهذه العبارة مقتبسة من الآية الخامسة من سورة الرعد.

«**لَيْتَ شِعْرِي إِلَى أَيِّ سِنَادٍ اسْتَنَدُوا**»: وهنا توجّه كلامها إِلى نساء المهاجرين والأَنصار قائلة: بأَنّ رجالكم قد أَساءوا الاختيار، وأَخطأوا السبيل، والأَمر العجيب الذي تشير إِليه الزهراء عليها السلام بشكل إِجماليّ:

ما هو الدليل والمعيار الذي استند إِليه المهاجرون والأَنصار في سلوكهم لهذه الطريق؟!

هل كان المال هو السبب؟ فنحن نعلم أَنّ أَحداً لم يدفع لهم درهماً ولا ديناراً.

هل كان الذين انتخبوهم ذوي شخصيّات مرموقة وشهرة كبيرة، بحيث إِنّ الجميع يعرفهم ويحبّهم؟! فإِنّنا نعلم أَنّهم لم

يكونوا من هذا القبيل من الناس.

هل كان المنتخَبون من أَهل العبادة والتقوى الفائقة، ممّا جعلهم محبوبين عند العامّة، حتّى سارعوا إلى اختيارهم؟ كلاّ، فإنّهم لم يُعرَفوا بهذا القدر من العبادة والتقوى.

هل كان المختارون في السقيفة من الشجعان الأَشاوس، الذين تشهد لهم سوح الوغى بمختلف صور البسالة، ويشار إِليهم بالبنان لبطولاتهم؟ كلاّ، فلم يكن هذا الإِمتياز من نصيبهم أَيضاً.

ياللعجب! إِذن ما السبب الذي دفع الناس بعد انقضاء بضع ساعات فقط على رحيل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله إِلى اختيار هؤلاء؟!

ويُنقل عن أَمير المؤمنين عليه السلام أَنّ تبرير القوم لفعلتهم هو أَنّ خلافاً قد وقع بين المهاجرين والأَنصار، ولـمّا كنّا نحن المهاجرين من قرابة النبيّ صلى الله عليه وآله وأَهل بلده، فقد جعلوا الخلافة فينا!

لكنّه إِذا كانت علّة الاختيار هي القرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله فإِنّني علاوة على كوني من أَبناء بلده، فإِنّني ابنُ عمّه، وزوجُ ابنته، ومِنْ عترتهِ، فلِمَ لم يقعِ الاختيار عليّ؟!

فإِن كان المناط في الانتخاب هي القرابة للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، فمَنْ هو أَقرب إِليه منّي يا ترى؟! «إِذا احتجّ عليهم المهاجرون بالقرب

من رسول الله صلى الله عليه وآله كانت الحجّة لنا على المهاجرين بذلك»[١]، «أَخذتم هذا الأَمر من الأَنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله، فأَعطوكم المقادة، وسلّموا إِليكم الإِمارة، وأَنا أَحتجّ عليكم بمثل ما احتججتم به على الأَنصار»[٢].

تقول مولاتنا الزهراء عليها السلام: ليتني علمت ما هو السند الذي استندوا إِليه في هذا الأَمر، «**وَإِلَى أَيِّ عِمَادٍ اعْتَمَدُوا وَبِأَيَّةِ عُرْوَةٍ تَمَسَّكُوا**»، فإِنّ الإِنسان إِذا شعر بقرب سقوطه من مكان مرتفع، سارعَ للتشبّث بموضعٍ مّا، والتمسّك بعروة وُثقى تنجيه من السقوط، لكنّ هؤلاء القوم الذين تمسّك الناس بهم لا يشكّلون عروة محكمة وُثقى.

«**وَعَلَى أَيَّةِ ذُرِّيَّةٍ أَقْدَمُوا وَاحْتَنَكُوا**»: وما هو المعيار الذي جعلهم يتّبعون هؤلاء القوم؟

وما الدليل الذي دفعهم إلى إعطاء ظهورهم لذرّية النبيّ صلى الله عليه وآله وعترته وسيطروا عليهم؟!

ثمّ تستشهد عليها السلام بآي من الذكر الحكيم، فتقول: «**لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ**

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج٦، ص٥.

(٢) المصدر السابق: ج٦، ص١١.

وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ»[١]، «**وَبِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**»[٢]، أَي: بئس البدل الذي اتّخذه الظالمون.

«**اسْتَبْدَلُوا وَاللهِ الذَّنَابَى بِالْقَوَادِمِ وَالْعَجُزَ بِالْكَاهِلِ**»: فعوضاً عن وقوع اختيارهم على مَن له قصب السبق في الإِسلام في التقوى والشجاعة والبسالة، وفي جميع الفضائل الأُخرى فقد اختاروا مَن تخلّف عن أَمثال هذه الأُمور، ولم يمتز بأَيّ فضيلة أَو كمال، وبدلاً من أَخذهم بالرأس فقد أَخذوا بالذنَب.

﴿**فَرَغْماً لِمَعَاطِسِ قَوْمٍ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**﴾[٣]، ﴿**أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلكِنْ لا يَشْعُرُونَ**﴾[٤]، والمعاطس جمع «معطس»، وهو موضع العطاس، وهو ما يقال للأَنف إِذا أُريد التعبير عنه بأَدب، وقد جرت عادة العرب أَن يقولوا لمن يريدون إِذلاله وتحقيره بشدّة، أَو الإِخبار عن هلاكه: «رغم أَنفه»، أَي: مُرِّغ أَنفه في التراب.

إِذن فمعنى قولها عليها السلام هو: «فلتمرَّغ في التراب أُنوف من يحسبون أنّهم قد أَحسنوا صنعاً، في حين أَنّهم من المفسدين، غير

---

(١) سورة الحج: الآية ١٣.

(٢) سورة الكهف: الآية ٥٠.

(٣) سورة الكهف: الآية ١٠٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢١.

أَنّهم لا يدركون ذلك».

«وَيْحَهُمْ ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاّ أَنْ يُهْدَىٰ فَمَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٥]، تعود عليها السلام هنا للتمسّك بالقرآن فتقول متسائلة: «هل يجب إِتّباع الشخص الذي يدلّ على طريق الحقّ ويهدي إِليه؟ أَم إِنّه ينبغي السير وراء من لا يعرف الطريق، وهو نفسه يحتاج إلى دليل وهادٍ؟! فمَن هو الأَولى بالإِتّباع منهما؟

(٥) سورة يونس: الآية ٣٥.

نَتيجةُ الرُّكونِ إلى أَهل السَّقيفةِ:

ثمّ تطرح البتول عليها السلام بعد ذلك أَمراً عبر أُسلوب يشوبه الإِستهزاء والسخرية، وهو فنّ من فنون البلاغة التي استخدمها القرآن الكريم أيضاً.

فلقد جاء في الآية التاسعة والأَربعين من سورة الدُّخان، أَن أَهل النار إِذا أَصابهم الظمأُ، وطلبوا الماء، ناولهم زبانية جهنّم ماءً حميماً يحرق أَحشاءهم قائلين لهم: «**ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**»، إِشربْ! فإِنّك على جانب من العزّة والاحترام عندنا، ممّا يجعلنا نقدّم لك هذا الماء المغليّ.

فإذا قُدِّم للمرء ماء مغليّ يحرق أَحشاءه ثمّ قيل له: «هنيئاً مريئاً! أيّ شراب لذيذ هذا! نحن نقدّم لك هذا الشراب احتراماً لك!» فإنّ لهذه الكلمات وقعاً على نفسه هو أَشدّ إِيلاماً وإِحراقاً من الماء المغليّ نفسه، فليس هناك صنف من أَصناف العذاب بما في ذلك العذاب النفسيّ إِلاّ وهو موجود في نار جهنّم.

فالأُسلوب الساخر الذي تستخدمه الزهراء عليها السلام في هذه الخطبة يتّخذ هذه الحالة، فهي عليها السلام تقول: «**أَمَا لَعَمْرِي لَقَدْ لَقِحَتْ فَنَظِرَةٌ رَيْثَمَا تُنتجُ ثُمَّ احْتَلبُوا مِلْءَ الْقَعْبِ دَماً عَبِيطاً وَذُعَافاً مُبِيداً**»؛ هل أَنتم فرحون جدّاً بأَن استوليتم على ناقة الخلافة وامتطيتموها،

وأَطلقتهم لها العنان مسرعين؟! فقرّوا عيناً بها! لكنّه قسماً بالله: إنّه لن يمضي وقت طويل حتّى تضع هذه الناقة الحبلى حملها، وحينئذ لن تحصلوا منها على لبن طازج فيه شفاء لكم كما تظنّون، بل ستحلبون من ضرعها وعاء طافحاً بدم عبيط، وسمّ زعاف يكون فيه هلاككم، «**هُنَالِكَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ**»[1]، وحينئذ سيخسر السالكون لسبيل الباطل.

«**وَيعرفُ التَّالُونَ غِبَّ مَا أسّسَ الأَوَّلُون**»، وسيعرف التالون لكم ما أسّستم لهم من سوء العاقبة.

«**وَأَبْشِرُوا بِسَيْفٍ صَارِمٍ**»، فإنّي أُبشّركم أَنّه لن تكون عاقبة أَمركم إلاّ سيفاً قاطعاً لا يرحمكم، ولعلّها عليها السلام تشير بهذه العبارة إلى دولة بني أُميّة، وأَمثال الحجّاج الثقفيّ، «**فَيَاحَسْرَتَى لَكُمْ وَأَنَّى بِكُم**»، فإلى أَين تُؤخَذون؟ وبأَيّ عاقبة ستُبتلون؟!

«**وَقَدْ عَمِيَتْ عَلَيْكُم**»، فإنّ ما يخبّئه المستقبل لكم خفيّ مُبهم، (لكنّني أَرى بوضوح ما ستؤول إليه أُموركم، وبأيّ ورطة ستقعون).

«**أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**»[2]؛ فهل لي أن أجبركم على ما تكرهون؟ (فأَنّى لي أَن أُكرهكم على السير في الطريق التي رسمها لكم الله ورسوله)؟

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٧.

(٢) سورة هود: الآية ٢٨.

الدَّرْسُ الـمُستلهَم من السَّقيفة:

كما قد أَسلفنا فإِنّه يمكن تقسيم كلام الزهراء عليها السلام هذا إِلى ثلاثة أَقسام:

فهي عليها السلام توبّخ المهاجرين والأَنصار في القسم الأوّل، وذلك لتركهم عليّاً عليه السلام، ثمّ تقدّم لعملهم هذا توضيحاً بقولها: «لقد تركتم عليّاً عليه السلام خوفاً من حَزْمه في الحكم، وأَحببتم أَن يتصدّى للخلافة من يمكنكم التفاوض معه، وتقسيم المصالح بينكم وبينه، فقد فتّشتم عمّن يتّصف باللين، ولا يكون صارماً.

وخلاصة القول فإِنّ مشكلة عليّ عليه السلام هي صرامته في الأَمر.

وهذا من أَعظم الدروس التي يمكننا استلهامها من هذه الواقعة التاريخيّة، ومن خطبة الزهراء عليها السلام وتطبيقها على حياتنا الاجتماعيّة.

فإِنّنا إِذ نفتخر من بين مليار ونصف مليار مسلم في العالم، بأَنّنا من أَتباع أَهل البيت عليهم السلام علينا أَن نبذل جهدنا للتشبّه بهم.

علينا أَن نعلم أَنّ عليّاً عليه السلام لم يكن نهجه الركون إِلى كلّ من يؤمّن له مصالحه على أَحسن وجه، ومداهنته والوصول إِلى صيغة تفاهم معه.

فلو تقصّيتم هذا المبدأ تاريخيّاً لوجدتّم أَنّ كافّة الإِنحرافات التي ابتلي بها المسلمون في حياتهم السياسيّة الاجتماعيّة على مرّ التاريخ كانت بدايتها قصّة من هذا القبيل؛ وهي أَنّ أَشخاصاً لم يقنعوا بحقوقهم وكانت تحدوهم نيّات الخروج - ولو بعض الشيء - عن الأُطر التي رسمها لهم الدين الإسلاميّ الحنيف، وهو ما شكّل انطلاقة للفساد، والزيغ، وإراقة الدماء، والعداوات، وقتل المسلم لأخيه وغيرها من المفاسد.

وفي المقابل فإنّه حيثما وُجد مَن دأبُه العمل ضمن الأُطر الإسلاميّة واجتناب إتّباع الهوى فإنّه يصيب خير الدنيا والفخر والشرف فيها، وينال الخير في الآخرة أيضاً.

فلو كان بالإِمكان السفر - لفترة قصيرة - إِلى مائة عام في المستقبل، ثمّ العودة ثانية إِلى عصرنا الحاليّ ودراسته وتحليله كقضيّة تاريخيّة، لانكشفت لنا قضايا زماننا بالكامل.

إِذن لم يحن الوقت بعدُ لتحليل ما نعيشه من قضايا معاصرة، لكنّه عندما تنتهي القضيّة وتضع الحرب أَوزارها يكون بمقدورنا الجلوس لاستعراض أَحداثها، وأَن نسأل أَنفسنا: ما الذي صنعناه؟ وما الذي صنعه الآخرون؟ وماذا كانت النتيجة؟

ويمكن القول بأَنّ الكثير ممّن جاءوا إِلى كربلاء يوم الطفّ

وشاركوا في قتل سيّد الشهداء عليه السلام لم يكونوا حينها يدركون جيّداً أَبعاد الجريمة البشعة التي ارتكبوها.

فبعض هؤلاء كانوا من قادة جيش عليّ عليه السلام في حرب صفّين، ومن أُولئك الذين حضروا لسنوات طويلة مجالس عليّ عليه السلام وجلسوا تحت منبره واستمعوا لكلامه، فعمر بن سعد كان قبل أَيّام قليلة من واقعة عاشوراء متردّداً فيما يصنع؟ فعندما عُرض عليه مُلك الريّ بات ليلته يذرع المكان جيئة وذهاباً متردّداً بين قبول هذا المنصب، أو التورّط بعذاب الله عزّ وجلّ؛ أَي: إِنّه كان يعلم بأَبعاد القضيّة، لكنّ الكثيرين لم يكونوا يدرون ما يصنعون.

وكذا الحال مع الذين اجتمعوا في السقيفة فإِنّهم لم يكونوا يفهمون جسامة وخطر ما يرتكبون، وأَيّ عواقب سوء تنتظر فعلتهم هذه؟ وأَيُّ مسؤوليّة ستُثقل كاهلهم نتيجة ذلك؟ تقول سيّدتنا فاطمة عليها السلام: إِنّكم الآن لا تدركون خطورة ما تفعلون، لكنّني أُخبركم بأَنّ هذه الناقة حُبلى، وستفهمون عن قريب أَيَّ خطأٍ جسيمٍ قد اقترفتم.

إِذن الدرس الذي ينبغي لنا استلهامه من هذه الواقعة هو أَنّه عندما يتعلّق الأَمر بالمسائل الاجتماعيّة، ومصالح أُمّة من الأُمم، فلا ينبغي المرور من أَمامها مرور الكرام، بل لابدّ من وزن الأُمور وتحليلها بدقّة، وإِلاّ فلن يكون لنا أَيّ شبه بعليٍّ، وبآلِ عليٍّ عليهم السلام، ويتحتّم علينا - في المسائل السياسيّة الاجتماعيّة على أَقلّ تقدير

- أَن نتأمّل جيّداً في عواقب الأُمور، ولا نفكّر بنتائجها العابرة وآثارها التافهة فقط.

ويتعيّن علينا أَيضاً أن نفكّر - ما وَسِعَنا التفكير - بما سيحدث في اليوم التالي، أَو في السنة القادمة، أَو - إِذا كنّا من أَصحاب الهمم العالية - في القرن التالي، علينا أَن نقوّي هذه الروح في أَنفسنا، وأَن ندع التهاون والتسامح في أَمثال هذه القضايا جانباً.

وَاقعةُ غَصْبِ الخِلافةِ من وِجْهةِ نَظَرِ أَهلِ البَيْتِ عليهم السلام:

عندما شعرت الزهراء عليها السلام بعد كلّ ما قدّمته من موعظة وبيّنته من حقائق أنّ كلامها لن يكون له وقع في نفوس الناس؛ وأنّهم لن يحملوه على محمل الجدّ، قرّرت عليها السلام أن تطلق آخر سهم بقي في جعبتها، ألا وهو الإنذار الأخير، ممّا ينتظر عمل الإنسان من سوء العواقب الدنيويّة.

فمن بين الطرق المتَّبَعة في عمليّة الإرشاد والدعوة تأتي «البشارة» بعنوان كونها الطريقة المثلى، والتي -عادةً- ما تُتَّبع في بادئ الأمر كي تسهم في جلب انتباه المخاطب.

فَرُسُلُ الله تعالى يكونون في البداية «**رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ**»[1]، يذكّرون الناس بما يترتّب على الإيمان والعمل الصالح وإتّباع الدين الحقّ من الآثار الحسنة.

ثمّ تأتي الطريقة التالية في الأهمّية من حيث التأثير بعد البشارات والمتمثّلة بالإنذار من عذاب الآخرة.

أمّا بالنسبة لضعيفي الإيمان فحتّى الإنذار من العذاب الأُخرويّ لا يكون ذا أثر كبير فيهم؛ ومن هنا فإنّ آخر ما يؤثّر في أمثال هؤلاء هو الإنذار ممّا يمكن أن تتسبّب به المعصية من تبعات دنيويّة؛ ذلك

(١) سورة النساء: الآية ١٦٥.

أَنّ أَثر التخويف من مصائب الدنيا وأَهوالها يكون أَشدّ على ذوي الإِيمان الضعيف من التخويف من عذاب الآخرة.

وهذا ما جعل الزهراء عليها السلام تقول في ختام حديثها لنساء المدينة:

«لقد حقّقتم ما صبوتم إليه وأنتم راضون فرحون بفعلكم، لكن اعلموا أَنّه لن يمضي زمن طويل حتّى تحلبوا من هذه الناقة بدل اللبن الطازج دماً عبيطاً، وسيُسَلّط عليكم من لا يرحمكم».

إِذ من المسلّم أَنّه عندما ينتاب الأُمّة انحرافٌ مّا، ويتولّى قيادة سفينتها أُناس يفتقدون الأَهليّة العلميّة لذلك من جهة، ويفتقرون إِلى اللياقة الأَخلاقيّة والمعنويّة من جهة أُخرى، ولا يتمتّعون بالمشروعيّة من جانب الله عزّ وجلّ من جهة ثالثة فإِنّ مصير هذه السفينة سيكون معروفاً.

السَّوادُ الأَعظم من النَّاس في عمليّة غَصْبِ الخِلافة:

هناك قرائن كثيرة تشير إِلى أَنّ الأكثريّة الساحقة من الناس في ذلك العصر كانوا يفتقرون إِلى البصيرة في الأُمور الاجتماعيّة، وكانوا مبتلين بسطحيّة التفكير، وسرعة الانخداع.

فلعلّ الكثير ممّن ارتكبوا هذه الخطيئة العظمى لم يكونوا يدركون ما يصنعون، وكانوا يظنّون أَنّها حرب قبليّة بين قبيلتين، فجُلّ ما كان يفكّر به الناس في ذلك العصر هو ما سيصيبونه من فائدة وربح جرّاء تلك الصراعات والنزاعات.

ولربّما كانوا يعلمون إِجمالاً بأَنّهم يقترفون خطيئة، لكنّهم لم يكونوا يدركون فداحة العواقب المترتّبة على هذا العمل والمسؤوليّة الجسيمة التي سيتحمّلونها بسببه إِلى يوم القيامة.

لكن كان هناك - في نفس الوقت - أَشخاص يمتازون بحدّة الذكاء والدهاء المفرط، فإِنّ التأمّل في بعض الوثائق يوحي بأَنّ هؤلاء كانت لهم اليد الطولى في حياكة المؤامرات ورسم الدسائس، فرغم قلّة عددهم، فقد كانوا يضعون من الخطط ما يجعل الغالبيّة العظمى من الناس ينخدعون ويتّبعونهم.

إِذن فنحن ندّعي أَمرين:

الأَوّل: هو أَنّ هذا العمل كان غاية في الضخامة والخطورة، وأَنّ آثاره السيّئة ستستمرّ إِلى يوم القيامة، وأَنّ كلّ من وضع حجر الأَساس لهذه القضيّة ولعب دوراً بارزاً فيها فهو شريك في هذا العمل.

الثاني: أَنّ الأَغلبيّة الساحقة من الناس في ذلك العصر لم يدركوا مدى خطورة هذا الفعل.

قد يقول قائل: إِذا كانت الغالبيّة العظمى من الناس تجهل عاقبة هذا الفعل، إِذن فإِنّ ذنبهم ليس عظيماً.

ويتعيّن القول ردّاً على ذلك: لا ريب أَنّ ذنب هذه الفئة لا يوازي ذنب تلك الثلّة القليلة التي تصدّت لهذا العمل، لكن – في الوقت نفسه – لا يعني ذلك أَنّ هؤلاء لا يتحمّلون أَيّ مسؤوليّة أَو تقصير؛ ذلك أَنّ القضيّة – أوّلاً – كانت على جانب من الوضوح، بحيث لو تأمّل بها أَيّ امرئ جيّداً، وحلّلها تحليلاً منصفاً، فسيصل إِلى نتيجة مقنعة.

فلو افترضنا أَنّ البعض لم يكن يدرك أَهمّية مسألة الخلافة، لكن أَلم يبذل النبيّ الأَكرم صلى الله عليه وآله من الجهود في التعريف بأَهل البيت عليهم السلام وتقديمهم على أَنّهم أُناس معصومون لا سبيل إِلى الخطأ إِليهم، وأَنّ قولهم وفعلهم حجّة على الآخرين، ممّا لا يدع مجالاً لأَيّ أَحد

لإنكار هذه الخصال فيهم؟

لقد كان رسول الله يقف يوميّاً بباب منزل عليّ وفاطمة عليهما السلام ويقول: «**السلام عليكم الصلاة يا أَهل البيت، إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس...**»[1].

وبناء عليه: فلو لم يكن أُناس ذلك العصر واعين بالفعل، كان بإمكانهم السؤال والتقصّي عن هذا الموضوع، فالعقل والنقل معاً يدلاّن على أَنّه إذا كان بإمكان المرء السؤال والفحص عن قضيّة، ثمّ قصّر في ذلك فهو مسؤول قطعاً، كما أَنّه يُقال للعالِم غير العامل في يوم القيامة: «أَفلا عملت»؟ أَي: لماذا لم تعمل بعلمك؟ ويقال للجاهل: «أَفلا تعلّمت»؟ أَي لماذا لم تتعلم[2]؟

لقد نقلت نساء المهاجرين والأنصار كلام الزهراء عليها السلام وشكاواها الكثيرة إلى رجالهنّ فأرسلوا إليها يعتذرون قائلين:

---

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ج٣٥، ج٢٢٣، ومسند الإمام أحمد بن حنبل: ج٣، ص٢٥٩ (طبعة دار صادر / بيروت)، والمستدرك للحاكم النيسابوري: ج٣، ص١٥٩.

(٢) عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: «فَلِلّهِ الْحُجَّةُ البَالِغَةُ» (سورة الأنعام: الآية ١٤٩): «إنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: أكنتَ عالماً؟ فإن قال: نعم، قال له: أفلا عملت بما علمت؟ وإن قال: كنت جاهلاً، قال له: أفلا تعلّمت حتّى تعمل. فيخصمه وذلك الحجّة البالغة» (بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ج١، ص١٧٨).

نحن إِنّما لم نَدْعَمْكِ ولم نَقَفْ إِلى جانبك لأَنّنا كنّا قد بايعنا شخصاً آخر، فلو أَنّكِ سارعت قليلاً في طرح قضيّتِك لكنّا وقفنا إِلى جانبك! فأَجابتهم عليها السلام: إِنّ عذركم غير مقبول بتاتاً، فإِن كان نقض البيعة قبيحاً إِلى هذا الحدّ فلماذا نقضتم بيعة الغدير إِذن؟!

وصفُ المتحيّنين للفُرَص على لسانِ أَئمّتِناعليهم السلام:

قد يعترض أَحدهم بالقول:

«هذا تفسيركم الشخصيّ للأُمور، وهو نابع من التعصّب؛ أَمّا تفسير الأَئمّة الأَطهارعليهم السلام لها فيختلف»! فإِنّ إِحدى الشبهات التي تشاع اليوم ضدّ التشيّع هي: «إِنّ ما ينسبه الشيعة لمخالفيهم هو كلام ملَفّق، ليس له أَيُّ أَساسٍ من الصحّة، بل حتّى أَئمّتهم لا يقبلون به أَيضاً»!

ونحنُ نرى من المناسب طرح المسألة بهذا الشكل:

وهي أَنّ قضيّة كون زعماء حادثة غصب الخلافة، يعدّون شركاء في كافّة الجرائم التي ارتُكبت وتُرتكَب بعد ذلك التاريخ، هي من المسلّمات عند أَهل بيت العصمة والطهارة (صلوات الله عليهم أَجمعين)، بل لقد أُشير إِلى هذه القضيّة في الزيارات المأثورة عنهم أَيضاً؛ نذكر هنا - على سبيل المثال - مقاطع من الزيارة الجامعة لأَئمّة المؤمنين التي نقلها المرحوم السيّد بن طاووس في «مصباح الزائر»، والمرحوم الشيخ عبّاس القمّي في ملحقات «مفاتيح الجنان»، إِذ تطرح هذه الزيارة - من ناحية - تحليلات ترتكز على أُسس اجتماعيّة ونفسيّة لتاريخ ما بعد عصر الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله، وتبيّن الدوافع والعوامل التي تقف وراء الانحرافات الحاصلة في

ذلك الزمن، وتُقدّم – من ناحية أُخرى – وصفاً لما ارتُكِب في ذلك العصر من أَخطاء جسيمة وما نتج عنها من تبعات.

تقول هذه الزيارة إنّ الإيمان الحقيقيّ لم يدخل إلى قلوب البعض في زمان النبيّ الأَعظم صلى الله عليه وآله، بل كانت قلوبهم مملوءة بأَقذار الشرك، ومشحونة بأَدران الكفر، لكنّهم كانوا يتظاهرون بالإسلام.

فعندما لحق المصطفى صلى الله عليه وآله بربّه انتهجوا طريقة المباغتة، وأَخذوا المسلمين على حين غرّة، واغتنموا فرصة غيابه صلى الله عليه وآله، كي ينفّذوا مآربهم الدنيئة: «**القلوب المُتِنَة من قذر الشرك، والأَجساد المُشْحَنَة من دَرَن الكفر، أَضبّوا على النفاق، وأَكبّوا على علائق الشقاق، فلمّا مضى المصطفى صلوات الله عليه وآله اختطفوا الغرّة، وانتهزوا الفرصة**».

وهذا المقطع يدلّ على أَنّ هذه الواقعة لم تحدث صدفة، بل كان مخطَّطاً لها مسبقاً.

ثمّ تقول الزيارة بعد ذلك: «**وأَسرعوا لنقض البيعة**»، التي بايعوا بها في يوم الغدير، «**ومخالفة المواثيق المؤكَّدة**»، التي أُخِذت منهم، «**فحُشر سِفْلَة الأَعراب، وبقايا الأَحزاب إلى دار النبوّة والرسالة**»، فاجتمع الأَراذل والأَوباش من بقايا الأَحزاب الذين ائتلفوا على ضرب الإِسلام واجتثاث أُصوله بباب بيت الزهراء عليها السلام؛ «**حتّى**

نقضوا عهد المصطفى في أخيه عَلَم الهدى»، فقد وصلت بهم الوقاحة وانعدام الحياء إِلى درجة نقض البيعة التي أَخذها منهم النبيّ صلى الله عليه وآله لأَخيه عليّ بن أَبي طالب عليه السلام. «**وجَرَحوا كبد خير الورى في ظلم ابنته، واضطهاد حبيبته، وخذلوا بعلها، ونقضوا طاعته، وجحدوا ولايته، وقادوه إِلى بيعتهم، مُصلِتَةً سُيُوفَهَا، مُقذِعَةً أَسنَّتَها، يدعونه إِلى بيعتهم التي عمّ شومها الإِسلام**»؛ فراحوا يسحبون عليّاً عليه السلام سحباً لأَخذ البيعة لهم منه، وسيوفهم مستلّة نحوه، ورماحهم مُشرَعة في وجهه.

لقد طرح أَهل البيت (صلوات الله عليهم أَجمعين) هذه المسائل كي لا يتركوا مجالاً لنسيان هذه الحادثة وضياعها في خضمّ الشبهات.

ومع ذلك فنحن نرى أَنّ هناك من الشيعة من يطرح هذه الشبهات ويقول: هذه النُّقُول لا تتمتّع بالاعتبار.

فالمسألة أَساساً هي أَنّ الناس في ذلك الحين أَرادوا العمل بقواعد الديمقراطيّة، والنظر فيمن حصل على كمّ أَكبر من الأَصوات!

فقد كتب أَحد مَن يُصطلَح عليهم: «الخبراء في الشؤون الإِسلاميّة» ما يلي: لقد كان عليٌّ عليه السلام وصيَّ رسول الله صلى الله عليه وآله، لكنّ وصايته كانت بهذا المعنى: وهو أَنّ النبيّ قد رشّحه لمنصب الخلافة

وقال: حسب رأيي فإنّه خليفة جيّد، لكنّ الرأي النهائيّ لكم؛ فلكم أَن تنتخبوا من تشاءون!

إنّ غايتنا من استعراض هذه المقاطع من الزيارة هو إبراز موقف أَهل البيت عليهم السلام من هذه البيعة وتلك الحادثة.

الآثارُ المشؤومةُ للواقعة:

تقول الزيارة في مقطع آخر: «**يَدْعُونَهُ إِلَى بَيْعَتِهِمُ الَّتِي عَمَّ شُومُهَا الْإِسْلاَمَ**».

ثمّ تحصي الزيارة بتعبيرات أُخرى النتائج المترتّبة على هذه البيعة المشؤومة بالقول: «**وَعَقَّتْ سَلْمَانَهَا، وَطَرَدَتْ مِقْدَادَهَا، وَنَفَتْ جُنْدُبَهَا، وَفَتَقَتْ بَطْنَ عَمَّارِهَا**»؛ فمن نتائج هذه البيعة أَنّها أودت بسلمان إِلى العزلة مع ما كان يتمتّع به من مقام رفيع، ونفت أَبا ذرّ، وشقّت بطن عمّار، ومع أَنّ هذه الوقائع قد حصلت على مدى أَعوام من الزمن إِلاّ أَنّ جميعها تُعدّ من نتائج وآثار تلك البيعة.

«**وَسَلَّطَتْ أَوْلاَدَ اللُّعَنَاءِ عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ**»، ثمّ تُعرِّجُ على قصّة يوم الحرّة، حيث اجتاح جيش يزيد بن معاوية المدينة، وأَباح كلّ شيء فيها: «**وَأَغَارَتْ عَلَى دَارِ الْهِجْرَةِ يَوْمَ الْحُرَّةِ، وَأَبْرَزَتْ بَنَاتِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لِلنَّكَالِ وَالسَّوْءَةِ**»؛ أَي: هتكوا حرمة بنات المهاجرين والأَنصار باسم الإِسلام!

فالزيارة تَعتبِر جميع تلك الوقائع من نتائج تلك البيعة، وأَنّ الذين أَوجدوا هذا الإِنحراف في الأُمّة هم شركاء في كلّ تلك الذنوب والمعاصي.

وفي موضع آخر من الزيارة جاء ما نصّه: «**يَا مَوَالِيَّ فَلَوْ عَايَنَكُمُ**

المُصْطَفَى»، ليت النبيّ صلى الله عليه وآله كان موجوداً ليعاين ما فعلته أُمّته بكم «**وَسِهَامُ الْأُمَّةِ مُغْرَقَةٌ فِي أَكْبَادِكُمْ، وَرِمَاحُهُمْ مُشْرَعَةٌ فِي نُحُورِكُمْ، وَسُيُوفُهَا مُولَعَةٌ فِي دِمَائِكُمْ، يَشْفِي أَبْنَاءُ الْعَوَاهِرِ غَلِيلَ الْفِسْقِ مِنْ وَرَعِكُمْ، وَغَيْظَ الْكُفْرِ مِنْ إِيمَانِكُمْ**»، والمقطع الأَخير هذا يشير إِلى التفاتة مرتبطة بعلم النفس، وهي دافع أَهل السقيفة من هذا الفعل، حيث تقول:

إِنّ العامل الرئيسيّ الذي قاد هؤلاء القوم إِلى القيام بما قاموا به هو الحسد، فقد كانوا يحسدونكم على ما تتمتّعون به من الإِيمان والنورانيّة، في حين أَنّهم يفتقرون إِلى مثل هذه الكمالات، فقد كانوا أُناساً عديمي الإِيمان، تنطوي قلوبهم على آثار الكفر والنفاق.

«**وَأَنْتُمْ بَيْنَ صَرِيعٍ فِي الْمِحْرَابِ...**»؛ وهنا تبدأ الزيارة بسرد أَشكال وأَصناف الظُّلم التي وقعت على أَهل البيت عليهم السلام واحداً واحداً؛ بِدْءاً من أَمير المؤمنين عليه السلام الذي فلقوا هامته الشريفة، وسيّد الشهداء (سلام الله عليه) الذي رفعوا رأسه المبارك على الأَسنّة، وسائر الأَئمّة الذين قضوا مسمومين خلف قضبان السجون... الخ، كلّ ذلك تعدّه الزيارة من نتائج تلك البيعة.

وبشكل عامّ فإِنّ الزيارة تشير إِلى خمس ملاحظات بخصوص الأَحداث التي وقعت في زمان فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) سنستعرضها هنا بشكل متسلسل:

أَوّلاً: إنّ الذين تزعّموا عمليّة غصب الخلافة كانوا أُناساً متحيّنين للفرص قد فاجئوا الناس بغصبهم للخلافة.

ثانياً: إنّهم قد نقضوا بيعتهم التي بايعوها قبل سبعين يوماً، وإنّ الأَعذار التي قدّموها في نقضهم لها غير مقبولة.

ثالثاً: إنّ جماعة من سفلة الناس وأَوباشهم قد هجموا على بيت النبيّ صلى الله عليه وآله، التي كان جبرئيل عليه السلام لا يدخلها من دون إِذن، وأَخذوا البيعة عنوةً من أَمير المؤمنين عليه السلام وهو عمل لا ينسجم حتّى مع الموازين غير الإِسلاميّة.

ثمّ تسرد الزيارة عشرة من الجرائم التي اقتُرِفت بعد ذلك الحين، وتعتبرها من نتائج تلك البيعة:

الأُولى: طرد أَمثال سلمان، وأَبي ذرّ، والمقداد، الذين يُجمع المسلمون على أَنّهم من أَفضل المؤمنين.

الثانية: تسلّط أَولاد الزنا على أَموال الناس وأَعراضهم.

الثالثة: وضع البِدَع وتغيير الأَحكام.

الرابعة: تخريب الكعبة.

الخامسة: اجتياح المدينة وإِباحتها.

السادسة: هتك حرمة الفتيات المسلمات.

السابعة: قتل أَمير المؤمنين (صلوات الله عليه).

الثامنة: سمّ الإِمام الحسن عليه السلام، ورمي جنازته بالنبال.

التاسعة: استشهاد سيّد الشهداء (سلام الله عليه).

والعاشرة: قتل سائر الأَئمّة الأَطهار (صلوات الله عليهم أَجمعين).

فالزيارة ترى أَنّ جميع تلك الجرائم البشعة هي من ثمار تلك البيعة المشؤومة[1].

بُكاءُ الزَّهراءِ رِسالةُ شَكْوى وآلامٍ:

قضية بكاء مولاتنا الزهراء عليها السلام وحزنها بعد وفاة أَبيها رسول الله صلى الله عليه وآله، وما خلّفه هذا الواقع المأساوي للزهراء عليها السلام من أَلم وآهات، بحيث تنقل بعض الروايات بإِن البعض من المسلمين ثقل عليهم بكاؤها، فجاؤا إِلى أَمير المؤمنين عليه السلام وطلبوا منه أَن يجد لهم حلاً في مسألة هذا البكاء، لأَنهم قد تأذّوا منه، ولذلك قام الإِمام عليه السلام ببناء بيت الأَحزان، وأَبعده عن بيوت المدينة.

هذه القضية وردت في الكثير من المصادر، وكثيراً ما نتناولها ونتحدث بها على ما هي عليه من دون البحث عن الأَسباب الحقيقية والغاية من بكائها عليها السلام، والتي تكون مناسبة لمقام العصمة وشأنها ونذكر الان الرواية من مصدرين:

---

(١) محاضرات الشيخ مصباح اليزدي بتصرف.

جاء في كتاب كشف الغمة عن أَبي عبد الله عليه السلام قال: البكاؤن خمسة: (**آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد، وعلي بن الحسين عليهم السلام**.... الى أَن يقول: **وأَمّا فاطمة فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تأذى منها أَهل المدينة، فقالوا لها: قد آذيتينا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إِلى مقابر الشهداء فتبكي، ثم تنصرف...**)[1].

ويقول الشيخ باقر شريف القرشي في كتابه حياة سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام: (وكان شبح أَبيها يتابعها في كل فترة من حياتها القصيرة الأَمد، وهي غارقة في البكاء، ويقول المؤرخون: إِن القوم قد ثقل عليهم بكاؤها، لأَن منزلها مجاور إِلى جامع الرسول، الذي كان مركزاً لاجتماعهم، فشكوا أَمر الزَّهراء إِلى الإمام عليه السلام، وطلبوا منه أَن تجعل وقتاً خاصاً لبكائها ولوعتها على أَبيها، لأَنهم لا يهجعون ولا يستريحون، فأَعلمها الإِمام أَمير المؤمنين عليه السلام فأجابته إِلى ذلك، فكانت في النهار تخرج ومعها ولداها الحسنان وبنتها سيدة النساء زينب إِلى شجرة من الأَراك (تقع خارج المدينة) فتستظل تحتها، وتأخذ بالبكاء على أَبيها طيلة النهار، فإِذا أَوشكت الشمس بالغروب قفلت مع أَبنائها إِلى دارها حتى خيّم عليها الأَسى والحزن، وعمد القوم إِلى تلك الشجرة فقطعوها، فكانت تبكي في حرِّ الشمس، فقام الإِمام أَمير المؤمنين عليه السلام،

(١) كشف الغمة، للأربلي: ج٢، ص٩.

فبنى لها بيتاً سمّاه (بيت الأَحزان)، ظلَّ رمزاً لأَساها وما عانته من الأَذى من صحابة أَبيها...)[1].

لكن تبرز من هنا وهناك بعض الإِشكالات الموجهة إِلى بكاء الزهراء عليها السلام، أَهم تلك الإِشكالات:

إِن فاطمة الزهراء عليها السلام معصومة، وهي أَحد الأَربعة عشر من أَهل بيت العصمة، فضلاً عن كونها من أَصحاب الكساء، ومعروف ما لأَهل الكساء من الفضل على الأَئمة الباقين سلام الله عليهم أجمعين، ولما كانت مولاتنا الزهراء عليها السلام في هذه المنزلة العليا والمرتبة الشريفة، والتي على معرفتها دارت القرون الأُولى، كيف تأتي بفعل يضر بالآخرين؟! بحيث يتأذون من بكائها، ولا يهدأ لهم بال، ولا يستطيعون أَن يرتاحوا لا في المسجد، لقرب منزلها منه، ولا حتى في بيوتهم، كونها قريبة على منزل فاطمة عليها السلام.

وهذا الإِشكالُ يثبت فيما لو كان بكاء الصدّيقة عليها السلام مجرد دموع وحزن في الوجد، وإِحداثاً للصياح والعويل، بحيث يصل الحال بالقومِ إِلى أَن يقولوا لأَمير المؤمنين عليه السلام بأَن فاطمة قد آذتهم ببكائها، وبالنتيجة بنى لها بيتاً بعيداً عن المدينة، سمّاه بيت الأَحزان.

ولكن حاشا للزهراء عليها السلام أَن تفعل مثل ذلك، لأَنها عليها السلام بكل تأكيد تستطيع أَن تحزن الحزن الهادئ والمناسب لحالها ومقامها، فلا

(١) حياة سيدة النساء، الشيخ القرشي: ص٣٦٣.

ترفع صوتاً، ولا تؤذي أَحداً من الناس، لكن الأَسلوب البكائي الذي اتخذته الزهراء عليها السلام كان أُسلوباً رسالياً، يهدف إِلى إِيصال مظلومية أَهل البيت عليهم السلام إِلى كل من يسمع بكاءها، وبيان أَحقية أَمير المؤمنين عليه السلام بالخِلافة، وإِبراز ما قام به الشيخان من إبعاد الخلافة عن مسارها الصحيح.

فهو أُسلوبٌ مقننٌ بحكمة بالغة، وينطوي على أَهداف كثيرة، وهو ذات الأُسلوب الذي اتخذه إِمامنا زين العابدين عليه السلام بعد شهادة أَبيه الحسين عليه السلام، تعبيراً عن حجم المظلومية والإِبادة التي تعرض لها آلُ محمد عليهم السلام.

وبهذا يندفع الإِشكال القائل: إِن البكاء أُسلوب العاجز، وأُسلوب غير القادر على استجلاب حقّهِ بالحُججِ والبَراهين، وذلك بكون الزهراء عليها السلام أَبرزت الحجج البالغة، ونطقت بالبراهين الناصعة أَمام الناس أَجمعين في مسجد أَبيها رسول الله صلى الله عليه وآله، وقالت خطبتها المشهورة بمحضر المهاجرين والأَنصار، وحاججت الأَوّل من دون أَي تردد أَو خوف، فهي لم تَحْصُر مطالبها بأُسلوب دون آخر، كي تكون الحجة بالغة على القوم.

ثم إِنه يمكن دفع الإِشكال أيضاً: بكون الزهراء عليها السلام تهدف ببكائِها بيان عظم المصيبة على المسلمين كافة، وتذكيرهم بفقد رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو خاتم الأَنبياء وعماد الكون، وواضحٌ ما لهذا

الحدث من أَثر في صدور المؤمنين الصادقين من حرارة وألَم، في حين أَن هذا الحدث لم يلقَ اهتماماً من القوم! إِذ أَنهم وبمجرد عروج رسول الله صلى الله عليه وآله إِلى بارئه انشغلوا عن رسول الله وهو لا زال مسجّىً لم يدفن بعد! وهذا ما جاء على لسان الزهراء عليها السلام:

قد كان بعدك أَنباءٌ وهنبثةٌ

لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إِنا فقدناك فقد الأَرض وابلها

واختل قومك لما غبت وانقلبوا

أَبدت رجال لنا فحوى صدورهم

لما قضيت وحالت دونك الترب

فيفهم من كل ما تقدم أَن الزهراء عليها السلام كانت تمارس ببكائها أَعظم دور لها، وهو دور الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي سرعان ما جاء ذلك الدور بثماره، حين أَورث في أَذهان العامة مسألة غصب الخلافة من أَمير المؤمنين عليه السلام، وغصب حقِّ الزهراء عليها السلام بفدك، حتى بدأ المسلمون يعون هذا الأَمر، وبدأوا يلومون أَنفسهم على تسرّعِهم بإِعطاء البيعة إِلى الأوّل، مما حدا ذلك بالشيخين وأَتباعهم بأن يبعثوا البعض من المسلمين الى أَمير المؤمنين عليه السلام، فطلبوا من الإِمام أَن يُسكتها ويمنعها من البكاء

والحزن، كونهم لا يستطيعون البقاء مكتوفي الأَيدي أَمام هذا الضخ الهائل من كشف الحقائق والتوبيخ المتعاقب عليهم من قبل الزهراءعليها السلام؛ وهم يعلمون ما للزهراء من مكانة ومحبة في قلوب المسلمين، ولا تزال كلمات رسول اللهصلى الله عليه وآله في حقِّها تقرع أَسماعهم ولم ينسوها بعد.

لذلك لم يكن لهم بُدٌّ إِلا أَن يأتوا بهذا العذر، ليقنعوا المسلمين بأَنَّ ما كان للزهراء أَن تتكلم بهذه الأَقوال التي توبخهم وتلومهم بها لولا حزنها وبكاؤها على أَبيها، بحيث أَفقدها صوابها وجعلها تتكلم بمثل هذا الكلام.

وربما يفهم أَيضاً أَن أَصل خروج الزهراءعليها السلام لبيت الأَحزان -الذي بناه أَمير المؤمنينعليه السلام- كان على حكمة بالغة، وذلك:

محاولة من أَمير المؤمنينعليه السلام لإِبعاد الزَّهراءعليها السلام عنهم، كونهم غير مؤهلين لتلقي وسماع كلام فاطمة الزهراءعليها السلام، بعد أَن أَصبحت القلوب أَشد من الحجارة.

وكذلك من المنطقي جداً بعدما قام الإِمامعليه السلام بهذا الفعل أَنه يريد أَن يشعر المسلمين وزوجاتهم، أَن الزهراءعليها السلام تريد أَن تعتزل هذا المجتمع المسلم المقصر في إِدراك الحقيقة، خوفاً عليهم من أَن يزدادوا اثماً كلما أَلقت عليهم الحجج، وهم لا يستجيبون لها.

إِضافةً إِلى أَن هناك دلالة تشير إِلى أَن أَعداء أهل البيت عليهم السلام كانوا يحاولون إِخفاء ومنع أَي صوت -مهما كان هذا الصوت حتى لو كان همساً- أَو أَي محاولة لكشف انحرافهم عن خط الرسالة المحمدي، فكيف بصوت الزَّهراء عليها السلام الذي ما فتأ يفضحهم، ويبين للناس أَين الصواب وأين الخطأ؟ وخصوصاً أَن بيت الزَّهراء لا يبعد إِلا اشباراً عن مسجد الرسول صلى الله عليه وآله، ومن المؤكد أَن المسلمين كانوا عندما يحضرون إِلى المسجد في أَوقات الصلوات، يسألون عن الزهراء عليها السلام ويتفقدونها، فكانت الزهراء عليها السلام تتقصد بث شكواها وإِسماع المسلمين الحاضرين في المسجد، وبيان أَخطاءهم التي وقعوا بها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وبيان سبب انحراف الأمة.

الخَطأُ الذي لا يُمْكِنُ تَدَاركُهُ:

الملاحظات المتقدمة كلها تكشف لنا عن مدى أَهمّية المسائل السياسيّة والاجتماعيّة، ومن هذا المنطلق فقد أَشرنا مراراً وتكراراً إِلى ضرورة أَخذ ما يُنجَز من أَعمال في حقل المسائل الاجتماعيّة بمزيد من الجدّية، فتدارك الأَخطاء التي تُرتكَب على صعيد المسائل الفرديّة يكون سهلاً في الغالب، لكن ما هو السبيل إِلى تدارك الخطايا التي تقود إِلى فساد اجتماعيّ؟

فلو افترضنا أَنّ الضالعين في إِشاعة هذا الفساد أَو إِيجاد ذلك الزيغ قد انتبهوا يوماً إِلى خطئهم وأَرادوا تداركه، فكيف يتداركون ما اقترفه معاوية – مثلاً – من جرائم؟ أَو ما ارتكبه الأُمويّون من فجائع؟ فإِنّ ما يرتكب إِلى يوم القيامة من جرائم مترتّبة على ما اقترفته أَيديهم لا يمكن تداركه بأَيّ حال من الأَحوال؛ فلقد حَرَموا المليارات من البشر من حقوقهم المتمثّلة بالانتفاع من وجود الإِمام الحقّ.

فلقد كان من حقّ البشر كافّة أَن ينتفعوا من معارف وعلوم قادةٍ ومربّين قد عيّنهم الله تعالى ليصلوا في ظلّ حكوماتهم وسياساتهم إِلى الظفر بالعزّة والسعادة في الدنيا والآخرة.

ومن هنا يتعيّن علينا أَن نكون يقظين وواعين للواجبات

الاجتماعيّة الملقاة على عواتقنا، وأَن لا تكون أَخطاؤنا مؤسِسةً لسُننٍ يسير عليها الأَجيال، فنتحمل وزرها ووزر من عمل بها إِلى يوم القيامة، والله تعالى هو الهادي، وهو أَرحم الراحمين.

الفهرس

المقدمة: ٥

الذود عن الولاية على فراش المرض: ٧

الشكوى من انعدام النخوة وفقدان المروءة: ١١

الدِّفَاعُ الصَّريحِ عَنْ الوُلايَةِ: ١٦

مَاذا لَوْ أَصْبَحَ عَليٌّ عليه السلام حَاكِماً؟ ١٧

الحَاكِمُ المِثَاليُّ: ١٧

حُكُومةُ عَليٍّ عليه السلام نَموذجٌ لِلحكومةِ الإِسلاميّةِ: ٢١

عَيْبُ عَليٍّ عليه السلام سَجَاياهُ الحَسَنَةُ: ٢٢

سِيرةُ عليٍّ عليه السلام هيَ السَّبيلُ الوَحيدُ لِسعادةِ البَشَر: ٢٥

عَاقبة الأُمّة التي تترك عليّاً عليه السلام: ٢٩

الإِخْتيارُ المُثيرُ لِلعَجَبِ: ٣٠

نَتيجةُ الرُّكونِ إِلى أَهل السَّقيفةِ: ٣٥

الدَّرْسُ الـمُستلهَم من السَّقيفة: ٣٧

وَاقعةُ غَصْبِ الخِلافةِ من وِجْهةِ نَظَرِ أَهلِ البَيْتِ عليهم السلام: ٤١

السَّوادُ الأَعظم من النَّاس في عمليّة غَصْبِ الخِلافة: ٤٣
وصفُ المتحيّنين للفُرَص على لسانِ أَئمّتِنا عليهم السلام: ٤٧
الآثارُ المشؤومةُ للواقعة: ٥١
بُكاءُ الزَّهراءِ رِسالةُ شَكْوى وآلامٍ: ٥٤
الخَطأُ الذي لا يُمْكِنُ تَدَاركُهُ: ٦١